أنبيا ء بلا نبوه

(تمهيد)

بسم الله الرحمن الرحيم " و الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ما ء حتى اذا جا ءه لم يجده شيئا و وجد الله عنده فوفّاه حسابه و الله سريع الحساب. او كظلمات في بحر لجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها و من لم يجعل الله لو نورا فما له من نور " (سورة النور 39-40)

" الفقها ء..هم فراعنة الاوليا ء و دجاجلة عباد الله الصالحين " (الشيخ الأكبر, الفتوحات المكية 1: 246)

....

كما أن شحذ السكين هو مقدمة ذبح البهيمة, كذلك نظرية المقاصد هي مقدمة محو الشريعة.

الحمد لله الذي أزال دولة الطغاة الذين فرضوا شريعتهم على قلوب الناس و اجسامهم, و الله أكبر الذي اضطر الفقها ء الى أن يخربوا بيوتهم بأيديهم, و سبحان الله الذي حفظ ميراث أوليا ءه حتى وصل الينا سالما رغم أنف أعدا ءهم, و لا اله الا الله الحقيقة المطلقة و مبدأ المبادئ المقدسة و نور قلوب الاوليا ء المخلصين و رب عرش الملك و الملكوت و العزة و الجبروت, الذي ينصر من نصره و لو بعد حين, و يعلن الحرب على من عادى أوليا ءه و أخرجهم من ديار مقاماتهم و قاتلهم في الدين.

و سلام على عباده الذين اصطفاهم بتنوير العقول, و هداهم الى ارتقا ء سلّم العوالم حتى نالوا عيان الوصول, و بعث في كل أمة جماعة منهم حتى يكونوا مصداق لسنته الحاكمة بأنه " لكل أمة رسول", و منّ عليهم بقوة الجهاد المعرفي في سبيله و نجّاهم من الكسل و الخمول, و جعل حجّتهم في كلام من عاداهم حتى أصبحت نظرياتهم نور على نور.

ان الوجود طبقات و سلالم, و له درجات متعددة, تبدأ من المبدأ الأعلى تبارك و تعالى "سبّح اسم ربك الأعلى الذي خلق" ثم تتنزل الدرجات من عنده مرورا بكل العوالم من العرش الى السموات و الى الاراضين و ما بين كل ذلك حتى تصل الى أدنى دركة في أسفل سافلين. و في الدرجة العليا لله تعالى قمة الروح و التجريد, و في أسفل سافلين يأتي عالم الأجسام أو ما يعرف أيضا عند من لا يدققون في مصطلحاتهم ب عالم "الماديات و المحسوسات". في المبدأ الاعلى سبحانه تكون الوحدة في أسمى كينونتها, و في أسفل سافلين تكون الكثرة في

أقوى ظهوراتها, و ما بين ذلك يكون بين بين. و "الكثرة" في عالم الأجسام هي ليست أمر اعتباري وضعي و انما هي وصف واقعي حقيقي, فلا يمكن التعامل مع هذا العالم بغير منطق الكثرة, و لا مجال لتوحيده في لون واحد بحال من الاحوال, لأن حقيقته هي أنه متكثّر متلون, و لا تظهر فيه الأشياء و تتجلى فيه الحقائق العليا الا بنحو التكثر و التلون, كمثل الماء الواحد الذي ينزل من السماء و لكنه ينبت شجر مختلف ألوانه و يكون بعض ثمار هذه الأشجار أفضل نسبيا من ثمار أشجار أخرى بحسب الآكل لهذه الثمار, و لكن الماء هو الحقيقة الجوهرية و لبّ كل هذه الأشجار و الثمار, فالماء هو الحقيقة و الاشجار المتنوعة المتكثرة هي الصور و الأمثال و الرسوم. أو كمثل ضوء الشمس فانه في نفسه لا لون له, و لكن اذا مر عبر زجاجة في الارض لها لون أصفر ظهر الضوء باللون الاصفر, و ان كانت الزجاجة لها لون أزرق ظهر الضوء بلون أزرق و هكذا, فيظن من لا علم و لا تحقيق له بأن الضوء نفسه قد تكثّر و تلون, فيعتقد صاحب الزجاجة الزرقاء بأن "ضوء الشمس أزرق" و يعتقد صاحب الزجاجة الصفراء بأن "ضوء الشمس أصفر" و تنشأ الحروب بينهما, فيكفّر بعضهم بعضا و يلعن بعضهم بعضا, و يطعن بعضهم في بصر و بصيرة الاخر, لماذا ؟ لأن الاخر يعتقد بأن لون ضوء الشمس ليس كما هو في الحقيقة ! و حيث اننا نملك اللون الحقيقي, و ليس بعد الحق الا الضلال, فان الاخر لابد أنه على ضلال, و حيث ان معرفة اللون الحقيقي من الأمر البديهية و المعلومة من الدين بالضرورة فاذن هو معاند جاحد في قلبه مرض فلا ينفع معه الا العنف و النفي و السجن بل و القتل ان اضطر الأمر اذ المبتدع في الدين ان لم نستطع ردعه بغير القتل فينبغي قتله لدرء فساده عن الناس, و هكذا ينسى كلا الفريقين في خضم هذا الصراع ثلاثة حقائق:

أولا, لا يوجد "لون حقيقي", لان الالوان من عالم الارض , و هي متكثرة بطبيعتها, و الضوء في ذاته يمكن أن يتجلى في كل هذه الالوان بدون أن يفقد "ضوءه".

ثانيا, يجب أن نركّز كمسلمين خصوصا على العامل المشترك مع المخالف لنا فنرتبط به و نتسالم معه من هذه الحيثية, و نتعاهد على أن لا يعتدي بعضنا على بعض جسمانيا و نترك للأخر ما خالفنا فيه ليحاسبه الله عليه, و بالتالي ينبغي ان نأتي الى صاحب الزجاجة الصفراء (على اعتبار أننا أصحاب الزجاجة الزرقاء) فنقول له " يا اخي, أنا و أنت ناخذ من ضوء الشمس و نمثل هذا الضوء, ففي اللب فنحن واحد و ان اختلفنا في القشر و الصورة, فلنكن من أولي الألباب و نتوحد على هذا ".

ثالثا, أن "الحقيقة" دائما عالية, ليس من عالم الاجسام و العياذ بالله, و انما هي من الله نفسه , أي من درجة الله تعالى في أعلى الوجود "و قل الحق من ربكم...الله هو الحق المبين" و بالتالي الحقيقة مجردة بطبيعتها, وواحدة في نفسها, و انما تأتي الكثرة حينما تتجلى هذه الحقيقة في العوالم الأدنة منها بداية من أعلى عالم الملكوت و الغيب الى أدنى عالم الملك و الشهادة (بحسب اصطلاح جمهور العرفاء). و بالتالي لا يمكن, بل من الكفر المحض, أن نعتقد بانه ليس للحق تعالى الا مظهر واحد على أرض الكثرة, بل الواقع هو أنه "لله المشرق و المغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم". فالله في ذاته في الكلمة السواء التي تجمع بين كل أهل الكتب و الصور المختلف

ألوانها و رسومها, و هذا هو لبّ اسلام الوجه لله و الاحسان في العمل و تزكية النفس و اصلاح الارض, و هو الدين القيّم, دين الحق الذي سيظهره الله على الدين كله و لو كره الكافرون. و انما يكون الكفر عندما ينفي أحد وجود الحق تعالى- و لو نفي باللسان- أو ينفي أحد تجلي الحق تعالى في أكثر من صورة فيكفر به في أي صورة غير صورته التي اعتقدها, أو ينفي امكانية تجلي الله أصلا في عالم الكثرة, و المصيبة الكبرى هي أن يعتقد بتجلي الله و الحق في زمن غابر و ينفي امكانية تجليه في زمن اخر و هذا هو أساس صنع الاصنام و اتخاذ الاوثان و قتل الأنبياء و عبادة الاباء. و هذه المصيبة الكبرى هي خلاصة ما قام و يقوم به فقهاء الشريعة بسبق اصرار و ترصد و عدوان أيضا.

ان اعتبرنا الاوامر المتعلقة بعالم الأجسام هي "الشريعة" عموما, و اعتبرنا ما يتخصص فيه فقهاء الفرق الاسلامية هو "الشريعة" كاصطلاح خاص و هو الذي نقصده في هذا الكتاب, فان النتيجة بناء على البيان و المثال السابق هو التالي: ليس لله شريعة واحدة فقط بل له شرائع متعددة, متعددة بتعدد الأنفاس و بتعدد المناطق و بتعدد الاحوال. و كل شريعة تكون ممثلة للحقائق العليا للوجود فهي شريعة معتبرة و ربانية بمقدار تجلي الحق تبارك و تعالى فيها. و ليس للشريعة عموما أي فائدة من الحيثية الدينية الا أن تكون صورة للحق, و مجلى للحق, ووسيلة للحق بحسب قوس الصعود من الأدنى الى الأعلى عن طريق الاعتبار و التأويل بعكس قوس النزول من الأعلى الى الادنى عن طريق التدلي و التنزيل, و ان كان كلا القوسين حقا الا أن قوس النزول هو الأحق أن يتبع و هو الأسلم و هو طريق الأنبياء و أهل التحقيق, و أما قوس الصعود فان فيه خطورات و عقبات كثيرة لعلنا نشير الى أهما أثناء هذا الكتاب ان شاء الله في حينه. فالقدر الكافي هنا هو أن نعرف بأن الشريعة عموما تكون اما صورة لحق أو وسيلة لحق, صورة بحسب قوس النزول, ووسيلة بحسب قوس الصعود.

و في حال كونها صورة فانها قد تكون دائمة بالنسبة لمن تجلت له هذه الصورة بعد تنزله من المقام الأعلى الى الأفق الأدنى لعالم الأجسام, فهو قد رأى حقائق معينة ثم رأى أن هذه الصور المعينة تعبر عن تلك الحقائق فيتعلق بهذه الصور لهذا السبب أي لكونها تذكره بتلك الحقائق و لكونها أيضا تجعله يعمل بجسمه ما شاهده في قلبه و ما يحياه في ذاته, فبالنسبة له خاصة قد تكون هذه الشريعة "حقيقة مطلقة" و بالنسبة له فقط لانها تعبير صوري عن حال شهودي و مقام وجودي. و هذا ما أشار اليه الحكيم السكندي قدس الله سره عندما عبّر عن نوعين من الناس في ذكر الله, فمنهم من "استنار قلبه فكان ذاكرا". أي أولا استنار قلبه, و هذا هو التحقق الذاتي الوجودي بالحقيقه في نفسها أي في درجتها العليا او درجتها المعينة في نظام و سلّم العوالم, و ثانيا ذكر, و هذا هو الشق العملي الجسماني, فالأول تعبير عن الحقيقة و الثاني تعبير عن الشريعة و كما ترى فان الحقيقة تسبق الشريعة.

و أما في حال كونها وسيلة, فان الوسيلة دائما تكون "صورة" لانسان اخر. أي ان انسانا اخر قد صوّر الحقيقة في رسوم و صور معينة, و عرضها على الناس على أنها طريق الى الله تعالى, و لسبب أو لاخر يبدأ هؤلاء بسلوك

الطريق الى الله عن طريق هذه الصورة, هذه الشريعة, التي أعطاهم اياها هذا الانسان أيا كان, ثم ان وفقّهم الله وسبقت لهم منه الحسنى و اجتباهم اليه فوصلوا الى الحقيقة فعلا, فان هنا يبدأ نشوء صراع. فانه بعد أن وصل الى الحقيقة, ماذا سيفعل بتلك الشريعة المعينة التي اتخذها كوسيلة؟ قد يرى أنها فعلا تعبير عن الحقيقة كما عرفها فيبقى على التزامه بها على بصيرة, و هذا هو حال الاولياء من أمة محمد عليه السلام كما فهمت من الشيخ الأكبر في فتوحاته (1, 225). و قد يرى صورة أخرى تكون أنسب له و يفضلها في الأكل على الصورة التي توسل بها الى المقام المتعالي سبحانه, و هنا ينشأ الصراع, و هنا تبدأ الأصنام, و هنا يبدأ الكبت و الكتم و التحريف. فانه ان استمر على الالتزام بتلك الصورة فانه لن يكون "صادقا" فيها, فان قلبه المتلئ بالحقيقة يرغب في شئ و لكنه لسبب ما- قد يكون تقية اجتماعية في معظم الاحيان- يستمر على الاستمساك المظهري المرائي بتلك الصورة, و ان استبدل تلك الصورة بغيرها, بصورة تناسبه هو أكثر فانه قد يجد حرجا بسبب جهل ما فيه يوهمه بأنه قد "كفر بالله" ان فعل ذلك ! فيبقى على الالتزام بها ليس حبا فيها و لا ايمانا بها و انما مجرد تقية نفسية, فهو يدفع شر العذاب يوم القيامة عنه- كما يتوهم- عن طريق هذا الالتزام المظهري الخاوي, فيكون التزامه ليس الا درع يتقي به نار يتوهم هجومها عليه ان لم يفعل ذلك. و من هنا أيضا تنشأ صناعة أصنام الأوامر. فان الناس قد ترى انسانا مستنيرا, او نبيا او وليا, و هو دائما انسان قد عرف الحقيقة و تنزل منها مرورا بكل العوالم متمثلا لتلك الحقيقة في كل العوالم حتى يصل الى عالم الاجسام فتتكون له شريعة معينة يلتزمها في نفسه, و قد يدعوا الاخرين الى التوسل بها و اتخاذها كسلّم للصعود الى الحق تعالى طبعا هو يدعو سجناء الظلمات لا غير, و اما أهل النور- مثله- فانهم ليسوا "أتباعه" و انما "اخوانه". فموسى مثلا لم يدع الخضر الى الله, و الخضر أيضا لم يدع موسى الى الله, و لكن كل منهم كان له علم معين بالله فطلب موسى من الخضر أن يعلمه اياه "هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا". ثم يأتي بعض أتباع هذا الواصل و يجعلوا طريقته صنما و لكل صنم خاصيتين في هذا السياق: الأولى أنه يزعم بانه لا وصول الى الحق الا عن طريقه فقط, و الثانية أنه يزعم انه التمثل الوحيد للحق في عالم الأجسام و الكثرة. أي انه لا وسيلة الا به و لا صورة الا له. فهو احتكار مباشر لطريق الصعود و لتجلي النزول. فيصبح وجه الله محصورا به, و يصبح تجلي الله محدودا به. و من أهم ما يترتب على هذا الاحتكار الاثم و التحديد المجرم بل الكفر المحض و الصد عن سبيل الله, هو التالي: لا يعترف بصلة أي أحد بالله ما لم يتقرب الى الله زلفى به, و لا يعترف بأي شريعة تتنزل من الله الا هي, و كل انسان ضال كافر ميت مغضوب عليه الا بشرط ان يأتي عن طريقه, و كل انسان محرف معاند جاحد اذا عبّر عن الحقائق بغير لسانه وصوره و رسومه. باختصار: يصبح كفرعون. لا رب سواه, و لا طريقة مثلى الا له, و من يعمل أي عمل أو يؤمن باي شئ غير ما يأذن هو به فانه يستحق العذاب الأليم في الدنيا- بحجة أنه مفسد في الارض و يريد تبديل دين الناس كما قال فرعون ساعيا ليقنع الملأ بأن يقتل موسى "ذروني أقتل موسى و ليدع ربه, اني أخاف أن يبدل دينكم أو يظهر في الأرض الفساد " و طبعا "و يذهب بطريقتكم المثلى". و بالتأكيد هذا غير العذاب الأليم في الاخرة الذي يبشروه به لأنه خالف طريقتهم المثلى المحدودة هذه. و المنظّر و المفلسف لهذه النظرية و تطبيقاتها في حدود أمّة القرءان الكريم و ما

ينسب اليها سواء كان انتسابا بحق ام باطل, هم من يعرفون باسم "الفقهاء" اي فقهاء الشريعة. و لذلك وصفهم الشيخ الأكبر ابن عربي رضوان الله عليه بأنهم " فراعنة الأولياء ". فتأمل في دقة الوصف و عمق التحقق فيه.

الأصل ان يكون لكل انسان شريعة, و هي شريعة الصورة, بمعنى أنه يعرف الحقيقة ثم يتنزل منها الى شريعة. اذ كل انسان هو خليفة الله بالذات, و ليس بالعرض, و غفلته و ضلاله هو أمر نسبي ظرفي, فهو كمثل الاتساخ و العفن الذي قد يصيب الجسم, فان الأصل في الجسم أنه نظيف و ما هذه الاوساخ الا أعراض ظرفية طارئة, فاذا اغتسل الجسم بالماء عاد الى فطرته الأولى و هي النظافة و السلامة, فالعرض لا يغيّر الذات, بل يحجبها فقط. و الطهارة هي عودة الى أصل الفطرة. و الله فطر الانسان ليكون خليفته, و هذا يعني أن كل انسان خليفة الله, و بالتالي الأصل هو تحقق صلة مباشرة بين كل انسان و الله تعالى. و العرض هو غياب (غياب عدم وعي و ليس غياب ذاتي اذ هذا مستحيل أصلا " فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ") هذه الصلة و ما يتفرع عن الوعي بها من علم و ايمان و قول و فعل.

و الاستثناء هو أن يكون بعض الناس قد وعوا فطرتهم و تفعّلت خلافتهم, فهؤلاء يعاونون من غفل عن حقيقته و ضل عن مقامه و تسفّل و نسي ذاته, فيدعونهم الى ربهم و نفسهم و يمهدون لهم الطرق و يرسمون لهم الشرائع التي تكون مجرد وسائل الأصل عدم الالتزام بها بعد الوصول الى الغاية منها, كما أن ركوب الطائرة وسيلة الى الوصول الى المدينة المنورة لمجاورة النبي مثلا, و بالتالي بعد ركوب الطائرة و الوصول الى المدينة المنورة لا قيمة للطائرة في حياة الواصل بعد ذلك اللهم الا قيمة الشكر و الامتنان, و لكن هذا لا يعني أن يطوف الواصل حول الطائرة كل يوم و يغسلها و يصلح أعطابها ليس هذا شأنه في شئ, و هو أيضا لا يعني أن يفجّر الطائرة أو يدعو الناس الى تحطيمها فقد ترجع الطائرة لحمل ركّاب أخرين للاتيان بهم الى المدينة المنورة, و بالتاكيد هذا لا يعطي الحق للمسؤول عن الطائرة بأن ينزل اللعنات على هذا المسافر المتوسل بالطائرة لأنه لم يرجع اليها بعد أن حصّل غايته منها فاذن لن يرجع اليها اللهم الا اذا وصل عند النبي ثم ملّ المكوث عنده فركب الطائرة ليرجع من حيث أتى ! أو كمثل بدوي يسكن في الصحراء اتسخ جسمه بالتراب و اسود وجهه من حر الشمس حتى بعد مرور زمن على هذا الاتساخ نسي هذا البدوي شكله الحقيقي و أصبح يعتقد بأنه خلق هكذا بجسم ترابي و وجه أسود, فيأتي أخ من المدينة الى هذا البدوي و يعرض عليه أن يؤديه عنده في المدينة حيث يوجد الماء البارد و الظل الظليل, فيقبل البدوي فيسكن عنده ثماني حجج أو يتم عشر من عنده, حتى يتنظّف و يبيّض وجهه مرة أخرى فيرى ذاته على حقيقتها ثم يشكر أخاه و ينصرف الى مدينة أخرى أو يسكن في الصحراء و لكنه يصمم لنفسه خيمة تقيه الحر أو يسكن في غابة بجوار أنهار و أشجار و أزهار أو غير ذلك. و هكذا يكون تعاون الانسان المستنير مع الانسان الغافل, مجرد دعوة و ان شاء و اذن له الله رسم له طريقا للوصول و سلّم للصعود. و هذه هي الشريعة "الوسيلة" و هي التي عبّر عنها الحكيم السكندري رحمه الله بقوله في الشق الاخر من حكمته عن النوعين من الذاكرين لله "ذكر ليستنير قلبه". فهنا قدّم

الذكر على الاستنارة, مع ملاحظة وجود لام الغاية و التعليل و التوسل فالذكر الذي هو العمل و الشريعة مقدم على الاستنارة التي هي معرفة الحقيقة. فذاكر ليستنير, و مستنير ذاكر. الاول قد يذكر بوسيلة و بعد الوصول يصبح من المستنير الذاكر أي الذي ينبع ذكره من قلبه و الحقيقة التي عرفها بحسب ما تجلت له, فعندها قد يصبح ذكره غير ذكره الأول الذي توسل به. و أما الثاني أي المستنير الذاكر فان ذكره يكون لا أي تكلف و لا مشقة ضد رغبته و ارادته لأنه نابع من ذاته, و ما نبع من الذات تلقائيا فانه يفيض على الجوانح و الجوارح بكل حب و سلام و طمأنينة. و أما المستنير الذي تحثه ذاته على ذكر فيكبتها و ينصرف الى ذكر اخر نبع من ذاته غيره و فرض عليه فرضا و قبله لجهله أو لاضطراره أو لكلاهما فان استنارته تضعف بمقدار استمراره على جهله هذا, و ان كان مضطرا فتسري عليه أحكام المضطر و هي أنه ان لم يستطع أن يخرج من حالة اضطراره مطلقا فان الله غفور رحيم.

هذا من حيث ما يعرف بشق "العبادات" من الشريعة. و أما ما يعرف بشق "المعاملات" فله شأن اخر. مع ملاحظة أن هذا التفريق بين العبادات و المعاملات يحتاج الى نظر و تدقيق لعلنا نأتي على ذكره ثناء الكتاب ان شاء الله تعالى. و يكفينا هنا أن نشير الى الأصول الأساسية كتمهيد.

على اعتبار ان المعاملات تهتم بتنظيم علاقة الانسان بالانسان في درجتها الارضية الاجتماعية, فهي لا تعنى بطبيعتها الا بالظاهر كأصل و الاستثناء أن يكون لها نظر الى النوايا و البواطن. و الغاية من هذه التشريعات في المعاملات هي المصالح "الدنيوية" البحتة. و بالتالي تكون الغاية منها يمكن رؤيتها نسبيا لكل البشر. فمثلا, اذا قيل أن تنظيم اقتصادي معين سيؤدي الى نجاح المجتمع و توفير المعيشة لكل الشعب, فان معرفة صدق وعد هذا التنظيم هو أمر يمكن رؤيته و قياسه ظاهريا و لا يحتاج الى وعي باطني أو عقل عرفاني, فيشترك أبولهب و محمد في معرفة مثل هذه الأمور الى حد كبير. لا أقل معرفتها من حيث تحقق صدقها في واقع درجتها المختصة بها. فعندما يقال "هذا الدواء سيشفي هذا الجسم" فاننا اذا وجدنا الشخص قد شرب الدواء ثم أصيب بسببه بمرض قتله فان هذه المقولة تكون كاذبة حتما بغض النظر عن لو كان قائلها جبريل (و العياذ بالله) ام أبليس. و التنظيمات المعيشية (و هذا ما سأصطلح عليه في هذا الكتاب عندما أذكر شق المعاملات من الشريعة عموما) هذه التنظيمات المعيشية متغيرة بطبيعتها في معظم الأحيان, و تغيّرها ذاتي لها, يتغير بحسب الزمان و المكان و الظرف و الحال و المستوى المعرفي و التقني و نحو ذلك. و بالتالي يستحيل نظريا او عمليا, عقليا أو جنونيا, أن توجد شريعة واحدة للمعاملات البشرية, للتنظيمات البشرية. و يندر جدا جدا حتى يكاد يصل الى حد المستحيل أن يوجد ثبات لشئ تفصيلي في مثل هذه الأمور. و بالتالي لا يمكن أن يوجد ثبات الا لمبادئ عامة جدا مثل مبدأ "الأخذ بالأصلح و الأحسن" و "ما كان أنفع للناس فهو الحق" و نحو ذلك. (و كل المبادئ العامة هذه مذكورة في القرءان الكريم الذي نزل على محمد النبي عليه السلام, و لا نعلم مبدأ له قيمة الا و هو في هذا القرءان العظيم,

بل ان هذه المبادئ عموما معروفة للعقل الانساني و كل عقل يفكر يمكن أن يصل الى نفس هذه المبادئ كمثل مبدأ "مراعاة الاصلح في كل واقعة" و نحو ذلك) . فلا يبقى بعد تحديد هذه المبادئ العامة المخصوصة بكل باب من أبواب المعاملات و التنظيمات المعيشية الا تطبيق هذا المبدأ على الوقائع الجزئية. و هنا تنشأ مسألة هامة جدا و محورية و هي مسألة "تعيين المصداق". و هي كيف نحدد أن هذا هو الاصلح و ليس ذاك؟ ما هو المعيار؟ طبعا هذه مسألة كبيرة و سنترك تفصيلها الى ثنايا الكتاب ان شاء الله, و لكن نذكر هنا بأن الاصل هو أن كل شق المعاملات من حيث كونه يهتم بعلاقة الانسان بالانسان من حيثيته الارضية الجسمانية الظاهرية, فانه يعني أن ثمار هذه الاحكام يجب أن تظهر في هذا العالم و هذه الدرجة الوجودية, فالنتيجة "محسوسة" ان شئت. و بالتالي يكون "الحس" هو الفاصل في الخلاف. فاذن مقاصد باب المعاملات هي مبادئ عقلية عامة يمكن بل يدركها كل عقلاء البشر, و نتائج باب المعاملات هي أشياء محسوسة جسمانية يمكن بل يدركها معظم او كل عقلاء البشر. (و العقلاء هنا تعني عموما: كل من ليس في مصحة عقلية أو مستشفى نفسي, ممن له حد متوسط من الرشد و الذكاء).

فاذن, لا حاجة جوهرية لنصوص "مقدسة" من أجل تنظيم شؤون المعاملات و التنظيمات المعيشية. و ان كان يوجد حاجة لمثل هذه النصوص فانما هي حاجة ثانوية ظرفية, ثانوية بمعنى أنها من باب المعونة و المشورة فقط و التي لا تلزم بنفسها في شئ و ان كان لها الزام فانما هو لكونها موافقة للمقاصد العامة و لكون نتائجها الايجابية قد ثبتت بالحس و المشاهدة البشرية, و ظرفية بمعنى أنها في الغالب الأعم محدودة بالظروف الزمانية و المكانية و النفسية و الاجتماعية و الجغرافية و نحو ذلك من ظروف ظهرت فيها هذه النصوص. فهي نصوص حدودها مرسوم بنفس ظهورها, اي بحسب الموضع الذي ظهرت فيه و السبب الذي ظهرت من أجله و الغاية التي هدفت اليها و نحو ذلك من ظرفيات و تحديدات و تخصيصات.

و من كل هذا نخلص الى أن: الأصل في باب العبادات (حينما يتوجه الى الغير) أنه وسائل للانسان سلوكها ان شاء و له التخلي عنها حينما يشاء, و الأصل في باب المعاملات أنه محدود بمقاصد بشرية عامة و محكوم عليه بنتائج مشهودة محسوسة و في كل الاحوال متغيّر بحسب الظروف.

فاذن, ان كانت الشريعة عبادات و معاملات, فلا شئ في الشريعة ثابت و مطلق وملزم بذاته. فالشريعة كلها متغيرات مشروطات. و هذا هو عين الواقع المطابق للحقائق, اذ الشريعة تظهر في عالم الاجسام و الكثرة و التغير و الفساد, و بالتالي تطرأ عليها هذه التحديدات كلها و تطبعها بطبيعتها و لا يمكن الانفكاك من هذا بحال من الاحوال. و محاولة جعل أي شريعة "مطلقة و ثابتة و صالحة لكل زمان و مكان" يساوي القول بانه في الامكان جعل المربع دائرة, او جعل 4+4= 1 !!

و هذا هو عين ما سعى له الفقهاء منذ القدم من احدى الجوانب, و هو السعي لهذا المستحيل, و قتل و اضطهاد و تعذيب و التنكيل و تهديد كل من يقول لهم ما تقتضيه الحقائق و سنن الخلق. و لكنهم من الجانب الاخر أعطوا لانفسهم فقط- و أشدد على كلمة "فقط"- الحق بأن يعدّلوا "الشريعة" كما يشاؤون حينما يشاؤون. و هذا مما سنراه ان شاء الله في هذا الكتاب.

و قد كان للفقهاء هذه السلطة لانهم كانوا بمثابة "السلطة التشريعية" في الدول التي ترفعهم, طبعا بتقييدات الدولة و أربابها في كثير من الاحيان, و أما اليوم فان سلطتهم في فرض مثل هذه الشريعة قد زالت اللهم لا من موضع أو موضعين في الارض من حيث الدول مع العلم بأنها شريعة من الصنف الذي أسميه "سبرماركت" و سنفصّل نظرية سبرماركت الشريعة في ثنايا الكتاب ان شاء الله تعالى و فتح لنا(مع العلم أنه لا توجد "شريعة" اسلامية, و لكن توجد "شرائع" تنتسب كلها للاسلام, و من المغالطات التي يستعملها الفقهاء و العوام, هو أن يقولوا مثلا "نريد تطبيق الشريعة الاسلامية" أو أن يكتب أحد كتابا يسميه "مقاصد الشريعة الاسلامية" و كأنه توجد شريعة واحد فقط لها مصادر معينة متفق عليها بين كل أهل الاسلام, و لها منهاج معين للاستنباط متفق عليه بين كل أهل الاسلام !! و هيهات أن يوجد أي شئ من هذا القبيل . فاحذر هذه المغالطة, فانها من صناعة الفقهاء-دجاجلة عباد الله الصالحين كما وصفهم الشيخ الاكبر قدس الله سره- ليوهموا العوام – و أنفسهم أيضا!- بوجود خاصية المقدس المتعالي "الواحد" في الشرائع "المتكثرة و المتعددة" بطبيعتها, فتأمل.) و بسبب زوال القوة الجبرية لفرض شريعتهم على الناس, و هو الكارثة الكبرى التي حلّت عليهم بزوال ما يلقبونه بدولة "الخلافة الاسلامية". و بالتالي اضطروا الى أن يجعلوا شريعتهم "مقبولة" للناس حتى "يقنعوهم" باتباعها. و هذه مشكلة المشاكل. خصوصا و أنها جاءت في مثل هذا العصر الذي غلب على أهله العقلية التي لا تعرف من العقل الا الدماغ البشري, و لا تعرف من الوجود الا الجسم المادي بالمعنى السفلي المطلق للمادة, و لا تعرف من البراهين الا المنطق الحسي المباشر. و بالتالي سعوا الى جعل شريعتهم مما يدخل تحت تعريف "علمي و منطقي" بحسب التعريف الغربي المادي المعاصر لهذه الكلمات. و من هنا انطلق البحث و التأسيس لفكر المقاصد المعاصر, بالرغم من انه له أصول في السابق كما نجده عند الشيخ الشاطبي رحمه الله و الشيخ العز بن عبد السلام رحمه الله و غيرهم الا أن هؤلاء أبرز اثنين في هذا الحقل, و ان كان للشيخ ابن تيمية و الشيخ ابن قيم الجوزية رحمهما الله اثار قيمة في هذا المجال. الا ان أبرز من فصّل في مسألة المقاصد هو الشيخ الشاطبي حتى لقبه البعض ب "شيخ المقاصديين" لكتابه الموافقات خصوصا. فأبرز الفقهاء كتاب الموافقات هذا و نقّبوا فيه و أبرزوه حتى أصبح في الغالب من ليس له حظ من هذا الكتاب لا يمكن اعتباره مؤهلا للتحدث في الشريعة عموما و في مقاصدها خصوصا. و لكن أبرز شيخ للمقاصديين في هذا القرن هو الشيخ الطاهر ابن عاشور الذي أبرز كتابه "مقاصد الشريعة الاسلامية" في سنة 1360 للهجرة, ثم من بعده توالت مباحث المقاصد, و أول دراسة حسب اطلاعي تحدثت عن نظرية المقاصد عند الشاطبي (ت 790

للهجرة) هي للدكتور الشيخ أحمد الريسوني بارك الله في عمره و قد ألّفه في سنة 1409 للهجرة, مما يعني وجود فاصل 49 سنة بين الكتابين. فالظاهر أن كتاب الشيخ ابن عاشور هو نقطة الانطلاقة و التأسيس للفكر المقاصدي المعاصر, و لهذا الامر دلالته بل دلالاته المهمة. و لذلك اخترت في هذا الكتاب أن نقوم بتحليل تفصيلي و نقد تدقيقي لكتاب "نظرية المقاصد عند الامام الشاطبي لأحمد الريسوني" و كتاب "مقاصد الشريعة الاسلامية للطاهر ابن عاشور". و لكن منذ سنة 1409 للهجرة عندما كتب الشيخ الريسوني كتابه, فالبرغم من بقاء كتابه و دراسته هذه كمرجع يطلع عليه – حسب ظني- كل من يريد أن يفهم او يدخل الى الفكر المقاصدي عموما و المقاصد عند الشاطبي خصوصا, فانه منذ سنة كتابته الى اليوم و هي نحو ثلاثين سنة حصلت الكثير من الأمور في حقل الفكر المقاصدي, و هذه الدراسات الجديدة ينبغي أن لا نغفلها حتى يكون تحليلنا هنا معاصرا قدر الامكان, و لذلك اخترت أن أضم الى هذا البحث كتابين للدكتور الحسان شهيد و هما " نظرية التجديد الأصولي" (نشر في 2012 م) و "الخطاب المقاصدي المعاصر" (نشر في 2013 م). و أثناء دراستي لموضوع المقاصد وقعت أيضا على كتابين لهما علاقة بهذا المبحث و هما كتاب "حجاب الرؤية: قراءات في المؤثرات الخفية على الخطاب الفقهي" للدكتور عبد الله السفياني (نشر في 2013 م) و كتاب " نقد نظرية النسخ : بحث في فقه مقاصد الشريعة " للدكتور جاسر عودة (نشر في 2013 م) و هما من الكتب الصغيرة الحجم ظاهرا و لكن لها تأثير كبير الحجم و دلالات مهمة تفيدنا في هذا المقام. هذه الكتب الستة ستكون هي الموضوع الأساسي ل تحليلناو نقدنا و ابرازنا لحقيقة الخطاب الفقهي و عقلية الفقهاء و شريعة الفقهاء خاصة في صورتها الحالية المعاصرة. خمسة منهم تمثل الشريعة المعاصرة خير تمثيل, و السادس منهما له صلة بالماضي و المعاصر و هو كتاب الشيخ الريسوني, حيث ان الشيخ معاصر و قد ضمّن الكتاب شئ من نظرته (و معلوم أن كل كاتب حتى لو كان يدرس غيره فان ذاته تبرز فيه دراسته شاء أم أبى) و حيث ان الشاطبي من الماضي فانه أيضا يعطينا فكرة عن نظرته الى الشريعة في ذلك الزمان.

و قد كنت أرغب في أن أضيف تحليل لكتابين آخرين كلاهما رسالة دكتوراه, واحدة عن مقاصد الشريعة عند العز بن عبدالسلام, و الثانية عن مقاصد الشريعة عند ابن تيمية, و لكن لم أقم بذلك لسببين: الأول هو لأن تحليل هذه الكتب الستة كاف لابراز كل أبعاد مسألة المقاصد ان شاء الله فلن نجد أصلي و جديد غير ما يوجد في هذه الستة و ان وجد فانه لن يكون أمر أساسي. و الثاني و هو الأهم هو أن تحليل هذه الكتب الستة قد يصل بنا الى تجاوز ألف أو الفين صفحة, لأننا سنقوم بتحليل دقيق قد نقف أحيانا عند كلمة أو حرف, فاذا ضممت كتاب العز و ابن تيمية أيضا فان هذا الكتاب قد يصل الى ثلاثة ألاف صفحة او اكثر. فمبدئيا لنكتفي بهذه الكتب الستة, و قد تعتبرها مقدمة شاملة حتى لمن لم يقرأ شيئا عن المقاصد بل و الشريعة, ثم ان أذن الله قد نكتب كتابا آخر نحلل و ننقد فيه ثلاث كتب مقاصدية شرعية مهمة و هي: موافقات الشاطبي و فكر العز و ابن تيمية في موضوع المقاصد خصوصا.

و أما عن تسلسل الدراسة. فقد رأيت أن أقدّم كتاب الشيخ ابن عاشور على كتاب الشيخ الريسوني, و ذلك أن كتاب الشيخ ابن عاشور تأسيسي و مقدمة شاملة و قوية وعميقة لموضوع المقاصد, و الواقع أن دراسة هذا الكتاب فقط كافية لجعل أي انسان ليدرك الكثير جدا ان لم يكن أهم ما في فكر المقاصد كله, فضلا عن احترامي و حبي و تفضيلي لمن يكتب فكره هو على من يكتب في فكر غيره عموما, و ان كان كلاهما خير و لكن لا مجال لمقارنة من يكتب ما عنده على من يكتب ما يفهمه مما عند غيره. بالاضافة الى أن في كتاب الريسوني يوجد تعليقات على ما ذكره الشيخ ابن عاشور مما سينفعنا أكثر لو اطلعنا على ما عند الشيخ ابن عاشور أولا قبل الخوض فيه. ثم كتابي الدكتور الحسان شهيد عن نظرية التجديد الاصولي ثم الخطاب المقاصدي المعاصر على هذا الترتيب فالكتابين اصلا بهذا الترتيب صدرا ثم لأنه ذكر مسائل في كتابة عن نظرية التجديد الاصولي ستكون مقدمة جيدة لمقارنة نتاجه فيها على نتاجه في الخطاب المقاصدي المعاصر. ثم كتاب الدكتور عودة عن نقد نظرية النسخ و ساقدمه على كتاب حجاب الرؤية لأنه ألصق بموضوع المقاصد و قد رأيت فيه تلخيصا مفيدا للفكر المقاصدي عموما, و أخيرا كتاب حجاب الرؤية و الذي أعتبره "القشة التي قصمت ظهر البعير" حيث انه قد أراد الدكتور أن يكتب لغاية و لكن كتابه ضرب الفقه و الفقهاء ضربة خطيرة لا أدري ان حسب لها حسابا, الا أنه نظريته لها قوة أيضا لا أدري ان تم تقديرها حق قدرها, فبالرغم من أن مضمونها قد يظهر على أنه من "البدهيات" عند بعض من أحب أن أسميهم (كما يوصف البعض بهذا الوصف) " الملاحدة العمليين " و ان كانوا "مؤمنين " و لكن عندما يقال عن الفقهاء ما قاله هذا الكتاب فان الأمر يكون له بعد آخر سنتطرق اليه في محله ان شاء الله. ثم سنكتب ببابا أذكر فيه ما يفتح الله به عليّ في هذا الشأن. و أخيرا نختم الكتاب بخلاصة شاملة قد الامكان.

و على هذا يكون تسلسل الابواب هو التالي :

الأول : مقاصد الشريعة الاسلامية للطاهر ابن عاشور

الثاني: نظرية المقاصد عند الامام الشاطبي لأحد الريسوني

الثالث: نظرية التجديد الاصولي للحسان شهيد

الرابع: الخطاب المقاصدي المعاصر للحسان شهيد

الخامس: نقد نظرية النسخ لجاسر عودة

السادس: حجاب الرؤية لعبد الله السفياني

السابع: رأي شخصي في الفكر المقاصدي

خاتمة.

قبل ان نختم هذا التمهيد يجب أن نتعرض لمسألة هامة أحسب أن بعض القراء سيذكرها في نفسه و هي هذه: لماذا اخترت فقهاء من مذهب أهل السنة فقط, فما بال الشيعة مثلا ليس لهم حظ في هذا الكتاب أو غيرهم من المذاهب؟

الجواب: ذلك لسببين الثاني أكبر من الأول و هو الأساس.

السبب الأول, هو لأني لم أطلع على مؤلف شيعي حول موضوع مقاصد الشريعة بحيث يكون مؤلف له أهميته و قيمته الاصلية او التبعية بحيث يستحق ان نتعرض له هنا. و الواقع- كما سنرى ان شاء الله- هو ان الفكر المقاصدي هو نوع من التفكير القياسي, اي المبني على القياس. و الشيعة الامامية مثلا معروفين بانهم ضد القياس الشرعي عموما, و كل من لا يؤمن بالقياس كوسيلة مشروعة لاستنباط الحكم الشرعي فمن باب أولى لن يرى للفكر المقاصدي قيمة تذكر, الفكر المقاصدي في تجليه الكامل و ليس أنصاف المقاصديين كما سنرى. فان "المقصد" الكلي يعتبر مثل "العلة" في القياس الجزئي, فان كان ينكر حجية القياس أو لا يرى امكانية أصلا لتعيين علة حكم الشارع, أو كان ينكر تعدية العلة الى موضع غير الذي ذكرت فيه (كالظاهرية مثلا) فان تحديد "مقصد" الشريعة و بناء جواز تنزيل الاحكام من هذا المقصد و ان لم ينص عليه الشرع, بل و تجويز مخالفة النص الصريح بحجة أنه مخالف للمقصد (كما هو لازم وواقع الفكر المقاصدي) فانه ليس فقط لن يهتم بالفكر المقاصدي بل لعله يرى كفر من يؤمن به لأن "أول من قاس ابليس" أليس كذلك ! (و في المسألة تفصيل أكثر نتركه لموضعه من البحث) و لذلك لم أنقّب تنقيبا شديدا عن مؤلف شيعي في هذا المجال.

السبب الثاني , هو لأني أعلم أن ما ينطبق على معظم مباحث هذه الكتب الستة هو بنحو مباشر أو غير مباشر متعلق ب "الشريعة الاسلامية" بكل صورها و انواعها, و حتى ان اختلفت الفرق فيها و حولها. فهذا الكتاب يمكن أن يقرأه شيعي و يعتبر أنني أتحدث عن شريعته هو و سيرى الكثير مما يمكن أن ينزّله عليها. و قل مثل ذلك في البقية. و ذلك لأننا سنبحث في الأعماق و الأصول و المبادئ أكثر مما سنبحث في الجزئيات و التفاصيل الثانوية. و في الاعماق و الجذور يوجد صلة بل كل الشرائع الاسلامية خصوصا و الشرائع المنتسبة الى ديانات تقليدية (اي تتصل او ترغب ان تتصل بالمقدس المتعالي) عموما.

و أما عنوان الكتاب " أنبياء بلا نبوه" فسيتبين سره لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد بعد أن يفرع من تامل هذا الكتاب و مطالعته. فالى ذلك الحين.

هذه مقدمه دراسه مطوله لم نفرغ منها بعد، و لكل كتاب اجل. فنترك الامر عند هذه المقمه حتى يحين وقتها ان شاء الله تعالى.

خاتمه

(بلبل الشهود)

كف عن تجرّع كأس الزقوم

و تجرع من الجمال لعلك تقوم

اشرب كأس بلال الغيبي

و قم بالسر كما كان يقوم

اذ قال للعاشق خير رسول

كيف أتّقي أصحاب السموم

فقال خذ خمرة اسم الأحد

فسكرة الحق للأبد تدوم

فانهالت عليه سياط الأفكار

و حجارة الشرائع فقال "أحد!"

ألا يشعر هؤلاء الموتى

أن بلال لا يشعر بأحد

كن كبلال و بلبل قلبك

بوجه المعشوق الفرد الصمد

أسود كالليل رمز الغيب

و في القرءان لا يقارعه أحد

خذها مني يا باحثا عن

فرحة تدوم و ملك الأبد

أغرق نفسك بذكر الله

و اضحك ساخرا على كل أحد.